جوانب من تاريخ مراكش الحمراء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من خلال رحلة التاجر الفرنسي پاول لامبير الاستكشافية

Aspects of the history of Marrakech in the second half of the 19th century through the journey of the French merchant Paul Lambert

د. عادل بن محمد جاهل، جامعة ابن زهر، أگادير (المغرب)

Adel ben mohamed jahil, MCA, Ibn Zahr university (Morocco)

الإيميل: adil.jahil@edu.uiz.ac.ma

تاريخ الاستلام: 2019/08/30 تاريخ القبول: 2019/09/16 تاريخ النشر: 2019/12/11

ملخص:

تسعى هذه الورقة، إلى تسليط الضوء على جانب من الرِحلات الاستكشافية الفرنسية إلى بلاد المغرب الأقصى، وبالضبط نحو مدينة مراكش الحمراء، من خلال نموذج رحلة التاجر والمستكشف پاول لامبير، وتحديدا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، وتشتمل هذه الورقة، على مجموعة من المباحث، حاولنا من خلالها دراسة الصور والانطباعات، التي خلّفها التاجر والمستكشف المذكور حول مدينة مراكش الحمراء.

كلمات مفتاحية: مراكش؛ الرِحلات الفرنسية؛ القرن التاسع عشر الميلادي؛ الصورولوجيا؛ پاول لامبير.

Abstract:

This paper seeks to highlight part of the French expeditions to Morocco, and precisely towards the red city of Marrakech, through the model of the journey of the French merchant and explorer Paul Lambert, specifically in the second half of the nineteenth century, This paper includes a series of Topics; through which we tried to study the images and impressions left by the said explorer about the red city of Marrakech.

Keywords: Marrakech; French expeditions; 19th century; Imagology; Paul Lambert.

المؤلف المرسل: عادل بن محمد جاهل، **الإيميل:** adil.jahil@edu.uiz.ac.ma

مقدمة:

يظهر أن أغلب الجوالين والمستكشفين والعسكريين الفرنسيين، الذين جابوا مجاهل بلاد المغرب الأقصى، على الأقل منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، كانت المغامرة، وارتياد المجهول، واكتشاف العجيب والغريب، والتنقيب عن الطريف والمدهش، والخروج على المألوف، والبحث عن الثراء السريع، والرغبة في الحصول على جائزة خاصة، من الغايات الرئيسة، التي دفعتهم إلى التنقل إلى عين المكان، متجشمين عناء السفر في البر والبحر، ومخاطرين بأرواحهم وأجسادهم، أملا منهم في تحقيق بعض المكاسب المادية والمعنوية والرمزية. وعلى هذا الأساس، وانطلاقا من تلك الدواعي، وصل إلى بلاد المغرب الأقصى، الذي كان يكتسي في مخيّلة الأوروبيين بشكل عام، طابعا غرائبيا، جمهرة كبيرة من المغامرين والمدنيين الفرنسيين، الذين ضاقت بهم سبل العيش في بلادهم، ومنهم أيضا، المستكشفين والرحالين المحترفين، الذين تعوّدوا على الرحلة، وركوب الأمواج، ومنهم رجال الدين، الذين رغبوا في القيام بنشر رسالة المسيح، وتعاليم الإنجيل، ومنهم رجال العلم، حملة الريشة والقلم، الذين استهوتهم الأبحاث عن الغريب في الطبيعة والإنسان. ونجد من بين هؤلاء المستكشفين، أيضا، الضباط العسكريين، الذين عملوا على إعداد معرفة جغرافية، ورصد أحوال المنطقة والساكنة، وجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات والبيانات، مهما بدت صغيرة وتافهة، تمهيدا لغزو قد يأتي لا محالة، ومنهم المستكشف بالصدفة، الذي وصل إلى المنطقة، بكيفية أو بأخرى، فاستهوته مجاهل بلاد المغرب، بلاد "العجائب"، و"الغرائب"، و"الخوارق"، و"الإثارة"، فحرّر على إثرها، ارتسامات وخواطر وانطباعات، مرتبطة بالمجال والإنسان المغربي.

علاوة على ما تقدّم، نجد أن أغلب هؤلاء الجوالين والمستكشفين والعسكريين الفرنسيين، قبل أن تطأ أقدامهم "الإيالة الشريفة"، كوّنوا خلفية تاريخية، وجغرافية، ودينية، وحضارية، أصيلة وعميقة؛ حيث درسوا الثقافة المغربية بأبعادها المختلفة، بل أكثر من هذا، تعلموا اللهجات المحلية، والعلوم الإسلامية، وعادات السكان المحليين؛ وذلك كله من أجل تسهيل مأموريتهم والنجاح في مهمتهم. وانطلاقا من ذلك، تمكّن هؤلاء الجوالين والمستكشفين والعسكريين الفرنسيين، من جمع كم هائل ومهم من الأخبار والمعلومات والبيانات، القيّمة، عن الوضعية: السياسية، والعسكرية، والاجتماعية، والاقتصادية،

والقبلية، للمغرب، كما كانوا شهود عيان على الكثير من التفاصيل الدقيقة عن أوضاع هذه البلاد، وجغرافيتها، ومسالكها، وحياة قاطنيها، ومُثلهم الأخلاقية، خلال طيلة الشهور والسنوات التي قضوها فيها؛ قصد التقصي والاستخبار عن جزء مهم واستراتيجي من القارة الإفريقية[1].

في المقابل، واجه هؤلاء المستكشفين والجوالين والعسكريين الفرنسيين، أثناء تسللهم للمجال المذكور، أو أثناء إجراءهم لبحوثهم الميدانية فيه، صعوبات وعراقيل ومشقات، جمّة، حيث إن بعضهم تعرض للأسر، والإغارة، والسرقة، والموت، والجوع، والعطش، والتهديدات البشرية، وتباين الألسنة، واختلاف العادات، ومنهم أيضا، من واجه الحرارة المفرطة، والمرض، والأوبئة، وآلام الغربة، وعدم وضوح معالم الطريق. وكيفما كان الحال، ورغم الصعوبات، والمشاق، والعقبات، الطبيعية والسوسيو ثقافية، الكثيرة والمتنوعة، التي اعترضت هؤلاء الجوالين والمستكشفين والعسكريين الفرنسيين، أثناء تسللهم للمجال المذكور، أو أثناء أبحاثهم وتحرياتهم الميدانية فيه، إلا أنهم تمكّنوا جميعهم من تقديم مادة معرفية أولية، عمّا شاهدوه، وسمعوه، وعاينوه، عن شؤون وأوضاع هذه البلاد الإفريقية المجهولة، وغير المعروفة لديهم، سكانا وقبائل وشيوخا، خاصة وأن هذا المجال يُعتبر من المجالات التي لم يتيسّر للرواد والمستكشفين الفرنسيين الأوائل زيارتها، ومعرفة تفاصيل أحوالها وشؤونها عن قرب.

وتُعتبر رحلة التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، من بين أهم الشواهد المصدرية التاريخية الفرنسية التي أرّخت لمراكش والمراكشيين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، خاصة لما لهذه المرحلة من أهمية قصوى من الناحية التاريخية والاجتماعية والسياسية؛ حيث تميزت بتسارع الأحداث وتلاحق الوقائع، إضافة إلى ما كان لها من تأثير كبير في توجيه تاريخ المغرب المعاصر، وإحداث تحولات كان لها وقعا عميقا في بنياته العتيقة، سواء من الناحية السياسية، أو العسكرية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو

[1] عادل جاهل، "البحث الكولونيالي الإسباني حول مجتمع إفريقيا (الصحراء الأطلنتية نموذجا): محاولة في التعريف والتركيب"، **مجلة جيل العلوم الانسانية والاجتماعية**، مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة، تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي، طرابلس، لبنان، العدد 51، مارس 2019، ص67.

الدينية، وحتى الثقافية، والفكرية. وهكذا، تضمّنت الرحلة السالفة الذكر، معلومات، ومعطيات، وإيماءات، نفيسة وكثيفة، عن الأحوال الاجتماعية، والحياة اليومية، والعادات، والتقاليد، والاحتفالات، في مراكش القرن التاسع عشر الميلادي، وهي بيانات، تُعتبر بحق، نادرة، وثمينة، ومثيرة، وقلّما تلتفت إليها المصادر والكتابات المحلية التقليدية المكتوبة باللغة العربية، والمتميزة بالشح والابتسار على صعيد عناصرها الإخبارية؛ حيث نجدها لا تهتم إلا بما هو سياسي، وعسكري، وما ارتبط بالأسر، والسلالات الحاكمة، ومآثر الأمراء والسلاطين والأعيان، أمّا ما تعلق بالمجتمع وعناصره المختلفة، فمن النادر ما نجدها تعطي إفادات مهمة حوله، إذ جعلته قطعة من التاريخ "المسكوت عنه"، حيث لا تقدّم إلا إشارات مقتضبة، وضحلة، ومبعثرة، وعابرة، ومتضاربة، يتواتر فيها الوضوح أحيانا، والغموض والإبهام أحيانا أخرى. وهكذا، لا تمكّن هذه البيانات الدارس مُطْلقا من إماطة اللثام عن معظم ثوابت المجتمع ومتغيراته، كما أنها لا تسمح له بأن يغوص في أعماق الواقع الاجتماعي للمجال المذكور بكيفية عميقة وأصيلة، وحتى إذا ما قدّمت هذه الكتابات المحلية الكلاسيكية بيانات ومعلومات حول المجتمع وسواد الشعب، فإننا نجدها فقط تُقدّم إفادات قليلة، وتلميحات خجولة، وشذرات موجزة، متناثرة هنا وهناك، سقطت سهوا من أقلام مُؤَلّفيها؛ لأن أصحابها اعتادوا التأريخ للخاصة من دون إيلاء العامة ما تستحق من حيث أدوارها وأهميتها في تطور مجريات الأحداث والوقائع التاريخية.

وممّا ينبغي لفت النظر إليه بهذا الشأن، هو أن التاجر الفرنسي پاول لامبير، درس، وبإسهاب، كل ما له علاقة مباشرة بالمجتمع المراكشي من أبسط الأشياء إلى أعمقها دلالةً، كما أنه أرَّخ لمنسيي التاريخ، ولمن لا تاريخ لهم، من: بؤساء، وبسطاء، ومستضعفين، ومهزومين، ومهمشين، وغيرهم، الشيء الذي جعل من رحلته المذكورة، مجال "التاريخ اللاّمفكر فيه" أو مجال "التاريخ المنسي". وهكذا أفرز لنا هذا المصنف الرحلي الفرنسي المتميز منتوجا علميا بالمعنى والكلمة، جدير بالاهتمام والقراءة، وما أحسب أننا أعطيناه حقه من البحث والدراسة؛ حيث ظل هذا التراث العلمي لحقبة طويلة، مغمورا، خامل الذكر، بعيدا عن كل إشارة؛ لأسباب مختلفة ومتعددة، منها: النظرة السلبية للإنتاج الكولونيالي، الذي يُوصف في الغالب الأعم، وإلى عهد قريب، بأنه تحصيل حاصل، لا يقدّم ولا يؤخّر، أو أداة للهيمنة والسيادة على الآخرين، أو لأنه مرتبط بالسلطة الاستعمارية،

إضافة إلى صعوبة الوصول إلى هذه النوعية من المصادر النفيسة، والتي تبقى في المجمل حبيسة رفوف الخزانات والربائد الأجنبية.

إذن، ما هي الصور التي رسمها التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير عن مراكش والمراكشيين؟ وإلى أي حد تمكّن من تشخيص الواقع الاجتماعي للمدينة المذكورة، في فترة النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي؟

هذه الأسئلة، وما سِواها، هي التي سنحاول البحث عن أجوبة لها، في قادم سطور هذا العرض المتواضع.

أولا- التعريف بپاول لامبير ورحلته الاستكشافية المراكشية

1. من هو پاول لامبير؟

أول ما يجدر الانتباه إليه، بهذا الصدد، أن المصادر والشواهد التاريخية لا تمدنا إلا بالنزر اليسير فيما يتصل بجوانب من بيوغرافية صاحب هذه الرحلة الاستكشافية وحياته، ومع ذلك، يمكن أن نستمد من تلك المعطيات القليلة والشحيحة، والمتناثرة هنا وهناك، بعض التفاصيل المتعلقة بحياته، وهكذا فصاحب الرحلة (پاول لامبير) يُعتبر أول مستوطن فرنسي استقر في مراكش، حسب بيانات الباحث مصطفى بوشعراء، وقد أقام بالمغرب مدة عشرين سنة، إذ حل به سنة 1853م، وسكن بمراكش 6 سنوات ونيف، ابتداء من مارس 1864م، كما أقام بالجديدة وبآسفي، ثم انتقل إلى طنجة سنة 1869م بوصفه كاتبا بالمفوضية الفرنسية، كان معينا لقنصل فرنسا بالسويرة، وللمفوضية الفرنسية بطنجة، وخصوصا أنه كان مستعربا، التمس له قنصل فرنسا أويي منزلا لسكناه بمراكش، لكن دون جدوى، غير أن ناظر الأحباس أكراه في النهاية خمس حوانيت، وقد واجه السكان المسلمون واليهود بالعداء، بل ومنعوه حتى من استخدام ميزان خاص، وقد طلب تعويضا قدره 280 ألف فرنك ذهبي، بسبب أن الولاة رفضوا منحه سكنى انتظرها مدة شهر، وبالطبع أهمل هذا الطلب[2].

[2] مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية بالمغرب 1280-1311/1863-1894**، (4 أجزاء)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط الطبعة الأولى، 1408هـ-1988م، الجزء الثالث، صص1136-1137.

كان پاول لامبير تاجرا وعميلا لدار سيير، وقامت تجارته على استيراد السكر والمنسوجات القطنية، وتصدير اللوز والزيت والقطن وجلود الماعز، وكان إلى ذلك وكيلا لدور تجارية إنجليزية وإسبانية وإيطالية، كان له إلمام باللهجة المغربية الدارجة يتحدثها بذلاقة، ويرتدي اللباس المغربي وينسجم مع العوائد والتقاليد المحلية، وضع تأليفا عن مراكش وخريطة للمدينة سنة 1867م، وإلى جانبها قرية (الحارة) المخصصة للمجذومين، وقد حرر أبحاثا نشرها في المجلات الجغرافية بإنجلترا وفرنسا، في بداية 1867م استحسن القنصل الفرنسي بومبي الخدمات التي أسداها لبلاده، لأنه كان يطلعه على الأحوال بدقة، وتوطدت علاقاته ببعض الأجانب والمغاربة[3].

2. السياق التاريخي لرحلة پاول لامبير إلى مدينة مراكش

جرت أحداث هذه الرحلة الاستكشافية، لصاحبها پاول لامبير سنة 1867م، أي مباشرة بعد هزيمة المغرب أمام إسبانيا سنة (1859م-1860م) في "وقعة تطوان" الشهيرة، المعروفة في الإسطوغرافيا الإسبانية، بـ"الحرب الإفريقية"، وهي فترة تاريخية، تميزت بكثرة الأحداث والوقائع السياسية والاجتماعية، وما يميز هذه الظرفية التاريخية، أكثر، هو تزايد واشتداد مظاهر التوتر والصراع في العلاقات المغربية الأوروبية بصفة عامة، والإسبانية على وجه الخصوص، وقد شهد المغرب خلال هذه المرحلة الحرجة من تاريخه، مجموعة من الضغوطات والتناقضات، مسّت مختلف الميادين والمجالات الاقتصادية، والسياسية، والعسكرية، والديبلوماسية.

ويمكن إجمال هذه الضغوطات[4]، المتنوعة المقاصد والأهداف، في عواقب معركة إيسلي سنة 1844م، ومعاهدة للامغنية سنة 1845م، وما ترتب عليها من إجحاف وتقزيم لحدود المغرب الشرقية والجنوبية، ثم هناك المعاهدة التجارية التي وقعها المغرب مع بريطانيا سنة 1856م، وما حملته من استغلال فاحش لخيرات المغرب، هذا بالإضافة إلى الحرب التي

[3] نفسه، ص1137.

[4] نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية 1873-1894م**، تقديم مصطفى الكثيري، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط الطبعة الثانية، 2016، صص12-13.

فرضتها إسبانيا على المغرب سنة 1859م-1860م، وما صاحبها من تعنت إسباني أثناء التوقيع على معاهدة الصلح في 26 أبريل 1860م؛ التي التزم فيها المغرب بدفع غرامة مالية باهظة بقيمة 100 مليون بسيطة، كتعويض عن الخسائر التي زعمت إسبانيا أنها لحقت مناطق نفوذها بالمغرب، هذا بالإضافة إلى توقيع المغرب يوم 16 غشت 1863م، تحت تهديد الأسطول الفرنسي بقنبلة الموانئ والمدن المغربية، معاهدة تجارية عرفت في الأدبيات التاريخية المغربية بـ"وفق بيكلار"، والتي من خلالها رسخت فرنسا تواجدها في التراب المغربي.

3. أهداف رحلة پاول لامبير الاستكشافية إلى مراكش

نستطيع القول من خلال ما توافر لدينا من معلومات ومعطيات، إن رحلة پاول لامبير الاستكشافية إلى مدينة مراكش، كان لها هدفين رئيسين ومتمايزين، وهما:

- **الهدف الأول:** (هدف استخباراتي/تجسسي)، غايته الرئيسة القيام بمسح شامل للمجال الجغرافي المراكشي، من أجل سبر أغواره، وتجميع بيانات تهم بالأساس الميادين الدينية والاجتماعية والاقتصادية، ناهيك عن بنيته وتضاريسه ومناخه ومجتمعه، وما ساعد الرحالة كثيرا، في مهمته الاستكشافية الاستخباراتية، اتقانه للغة العربية والدارجة المغربية، ناهيك عن درايته الكبيرة بالعوائد المغربية.
- **الهدف الثاني:** (محفز شخصي)، يتجسد في رغبة دفينة داخل الرحالة لاستكشاف المجهول وشغفه بارتياد غياهبه، ومن أجل كل هذا، تجشم رحالتنا الصعاب الجسام، وتحمل المشاق المضنية، وركب المخاطر المهولة، في سبيل تحقيق أهدافه اللامحدودة، المتمثلة في اكتشاف العوالم والأقطار الغريبة والمجهولة والمغلقة.

ثانيا- مراكش (قصة التأسيس، التسمية، والمظهر العام للمدينة)

يُشير التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير أن مدينة مراكش يعود تاريخ تشييدها إلى القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحادي عشر الميلادي، ويذكر أيضا أن الموضع الذي كانت تشغله المدينة والبساتين المحيطة بها، كانت عبارة عن مراعي لرعاة أغمات، وهي مدينة قديمة كانت توجد منذ الاحتلال الروماني للبلاد المغربية، وما تزال أطلالها على بعد يوم من المشي من مراكش، ويضيف بأن المدينة أخذت اسمها من بئر جافة، تقع وفقه تقريبا في وسط مراكش، ويُخبرنا أن يوسف بن تاشفين هو أول من جاء ليسكن في هذا المكان

وتحديدا سنة 454 هجرية، حيث بنى مسجدا وقصبة، وذلك من أجل تأمين ممتلكاته بها، ويُضيف أن يوسف بن تاشفين لكي يتقرب منه مناصروه وأتباعه من سكان أغمات، بنوا مجموعة من البيوت حول تلك القصبة، وحينما توفي فطن ابنه علي بن يوسف بن تاشفين إلى الأهمية التي أخذت تحظى بها المدينة الجديدة فأحاطها بأسوار[5].

وفي ذات السياق، أورد التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير أن أسوار مدينة مراكش مبنية بالتراب الممزوج بالحصى والجير، كما أن جزء من هذه الأسوار مدعوم بأبراج صغيرة من مسافة إلى أخرى، بيد أنه يُبين أن أغلبها صار أطلالا حينما زار المدينة قصد استكشافها والتعرف عليها، ويُضيف أيضا أن هذه الأسوار أو بالأحرى ما بقي منها أضحت متصدعة تماما، بحيث إن الراجلين يجدون بسهولة كبيرة ممرا حين تكون الأبواب مقفلة، ويؤكد أن مجمل هذه الأسوار لم يتم بناءها إلا في نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وبالضبط في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله[6].

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، وفيما يتعلق بالمناخ والأحوال الجوية، يذكر التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير أن مناخ مدينة مراكش جد حار صيفا ومعتدل شتاء، ولا تتساقط بها الثلوج مطلقا، ولو أنه في الشتاء تكون لياليها باردة، بفعل الرياح القادمة من الجنوب، التي تمر عبر الجبال المجمدة بالأطلس[7].

إلى جانب هذه المعطيات النادرة، يُحدثنا التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير أن الماء في مدينة مراكش يوجد بوفرة كبيرة جدا، حيث يتم جلبه داخل صهاريج، بواسطة قنوات اصطناعية، تتلقاه من جبال مسفيوة ومولاي إبراهيم، ويُضيف أنه قديما كانت الخزانات العمومية تحظى بعناية كبيرة، وكان بعضها مزينا بالأرابيسك، بيد أنه يؤكد أن تلك الخزانات قد صارت أطلالا باستثناء واحدة أو اثنتين، وبالكاد ما تنظف مرة واحدة في السنة، وذلك حين تسد القنوات[8].

---

[5] Paul Lambert, "Notice sur la ville de Maroc", **Bulletin de la Société de Géographie de Paris**, Novembre-Décembre 1868, p430.

[6] Ibidem.

[7] Ibid., p446.

[8] Ibid., p443.

ثالثا- الحياة الاجتماعية

1. السكان وتركيبة المجتمع

يُخبرنا التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير أن مدينة مراكش مأهولة بخليط من الناس منحدرين تقريبا من مختلف أقطار إفريقيا: (موريسكيون، وجزائريون، وتونسيون، ومصريون، وصحراويون، وزنوج قادمين من بلاد السودان الغربي)، ويلاحظ فيها بين الفينة والأخرى بعض السنغاليين، وهكذا يُتكلم فيها بثلاث لهجات متمايزة، هي: (العربية، والشلحة، والگناوية)، وأول هذه اللهجات، هي اللغة السائدة في المغرب من تطوان إلى موگادور، أما اللغة الأمازيغية، فيتكلم بها سكان الأطلس، وأخيرا الگناوية، فهي لغة الزنوج[9].

وبموازاة مع ما تقدّم، يُقدر التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير عدد سكان مدينة مراكش في ستينات القرن التاسع عشر بحوالي 50 ألف نسمة، منهم تقريبا 6000 نسمة ينتمون إلى الطائفة اليهودية، ويُضيف أن هؤلاء اليهود يتوفرون على حي خاص بهم يسمى (الملاّح)، أغلبيتهم يميلون إلى التجارة، ويقومون بالكثير من المشاريع، وقليل منهم من يجازف بالدخول إلى المدينة دون ضرورة قصوى أو الخروج من الملاّح، وهم مجبرون نساء ورجالا، على إزالة أحذيتهم والمشي حفاة، حينما يمرون أمام مسجد، أو بجانب منزل أحد المسلمين، لا يمكنهم أن يردوا على المسلمين الذين يهينونهم، ويُضيف بأن هؤلاء اليهود رغم مجيء السير موشي مونتيفيوري إلى مدينة مراكش، ورغم مجهوداته الكبيرة الداعية إلى الإنسانية، لم يحسن من وضعهم مطلقا، حيث مازال الوضع تقريبا هو نفسه بالمدن الداخلية، كما كان منذ عقود خلت[10].

2. السكن

يُستشف من معطيات وبيانات التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير أنه كان مهتما بشكل كبير بالمنازل والبيوت المشيدة في مدينة مراكش، حيث خصص لها حيّزا مهما في رحلته الاستكشافية إلى المدينة المذكورة، وهكذا يُشير إلى أن بيوت مراكش عادة ما تتكون من ساحة تتضمن غرفا بالجزء الجانبي، وبالداخل غرفة بدون أفرنة تقوم مقام المطبخ، وبجانب

[9] Ibid., p432.

[10] Ibid., p439.

باب الدخول سلم صغير ضيق يؤدي إلى الطابق الأول الذي يسمى (الدويرية)، حيث يتلقى صاحب البيت زياراته ويستقبل ضيوفه، ولا يدخلهم للطابق السفلي المخصص أساسا للنساء، وغالبا ما كانت هذه البيوت تتوفر على بئر لا يصلح ماؤها سوى للتنظيف وغسل الصوف، أما مياه الشرب والطبخ فيتم جلبها من الصهاريج العمومية، بالإضافة إلى الدويرية، تتوفر بعض المنازل على غرف بالطابق الأول وعلى إسطبل[11].

وغرف البيوت عموما في مدينة مراكش طويلة وضيقة، غير أنه وبفعل استيراد الخشب من أمريكا والسويد، فصار يستعمل جزء كبير من هذا الخشب في بناء المنازل الجديدة، الأمر الذي جعلها هكذا تصبح أوسع من القديمة، ويبلغ طول الألواح الخشبية المتينة المستخدمة في سقف الغرف حوالي أربعة أمتار، وبالداخل كل الحيطان تقريبا مغطاة بالجبس ومزينة أحيانا بالأرابيسك وبآيات قرآنية، مرصعة بألوان مختلفة، كل الطوابق الأرضية تقريبا، مبنية بالتراب والجير الممزوجين معا (الطابية)، بينما الطوابق العلوية مبنية بالآجر[12].

ويُحدثنا التاجر الآنف الذكر بأن ثمن بيت في مدينة مراكش، في ستينات القرن التاسع عشر الميلادي، مكون من ثلاث غرف في الأسفل، وساحة تبلغ مساحتها حوالي ستة أمتار مربعة، وطابق علوي ودويرة، بالإضافة إلى إسطبل بجانب باب البيت، ما بين 6000 إلى 7000 أوقية، وهو ما يعادل 10000 فرنكا، وتبلغ حمولة من التراب وزنها 50 كلغ حوالي موزونتين ونصف، والجير عشر أوقيات إنجليزية لـ 50 كلغ، وسعر الآجر 12 أوقية، وأجر البنّاء أربع أوقيات، وعامل يدوي أوقيتين[13].

وممّا ينبغي لفت النظر إليه بهذا الشأن، هو أن أجمل المنازل في مدينة مراكش، تقع في زاوية الهدار بسيدي عبد العزيز ورياض الزيتون، وهذه الأحياء جد مأهولة بالسكان، وهي الأكثر أمانا من هجمات اللصوص، وتقع عموما أبواب المنازل من باب الاحتياط بأزقة مفضية إلى الشارع الرئيسي المجهز بباب رئيسي، يغلق ليلا ويفتح نهارا، كمدخل للسكان

[11] Ibid., p432.

[12] Ibidem.

[13] Ibid., p439.

وزوار الحي (الدرب)، أما فيما يخص طرق المواصلات من حي إلى آخر، ليست محاطة سوى بحوانيت أو أسوار بدون منافذ، وتوجد فضلا عن ذلك كوات نوافذ على الواجهة الخارجية للأسوار، وهناك نوافذ داخلية مفتوحة فقط على اليهو[14].

3. الصحة والأمراض

أورد التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير تفاصيل عديدة، حول الأمراض والأوبئة التي كانت متفشية بين الساكنة المراكشية، وفي هذا الإطار يذكر أن الأطباء لا يوجدون في المدينة، وأن الأدوية التي يستعملونها هي الأعشاب وجذور النباتات، ويعتقد المرضى كثيرا وفقه دائما في (الحروز) أو التعاويذ، وفي الحج إلى مزارات المدينة وضواحيها، ويُضيف بأنه في الصيف غالبا ما تخلف الحمى المتقطعة الناجمة عن الإفراط في تناول الفواكه الكثير من الضحايا، ويُشير أيضا أنه في سنة 1867م أصيب عدد لا بأس به من المراكشيين بهذا المرض المخيف[15].

بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه أعلاه، يُخبرنا التاجر والمستكشف السابق الذكر، أن المصابين بمرض الجذام في مراكش، عادة ما يسكنون خارج المدينة قريبا جدا من باب دكالة، قرية تسمى (الحارة)، ويمنع عليهم دخول المدينة، وبذلك يشكلون مجتمعا خاصا، لهم مسجد وسوق وسجن، ويحمون أنفسهم بأنفسهم، ويزرعون الأرض ويمتلكون بساتين، ونفس الشيء ينطبق على اليهود المصابين بذات المرض، حيث هم الآخرون لديهم حي خاص بهم، كما يتوفرون على كنيس لأداء واجباتهم الدينية[16].

4. التغذية

سجّل التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير بيانات مهمة، حول موضوع التغذية في مدينة مراكش، حيث يذكر أن أغلب سكان المدينة يتناولون ثلاث وجبات في اليوم؛ الأولى، وقت الضحى، تسمى الغذاء؛ الثانية، وقت العصر، تسمى الفطور؛ والثالثة، وقت العشاء أو المغرب، وتسمى العشاء، ويُضيف بأن الأكلة المفضلة لديهم هي الكسكس، والمشروب

[14] Ibid., p433.

[15] Ibid., pp444-445.

[16] Ibid., p445.

المفضل لديهم هو الشاي الأخضر المحلى كثيرا، وبما أن الدين الإسلامي يحرم الخمر والمشروبات الروحية، فإن المغاربة يشربونها خفية، ويُقال إن بعض النساء لا يمتنعن عن شربها حين تكون الفرصة مواتية[17].

5. المؤسسات الخيرية

يتبيّن جليا من خلال معطيات التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، أن المؤسسة الخيرية الوحيدة الموجودة في مدينة مراكش، هي مزار أو زاوية سيدي بلعباس، الواقعة في شمال المدينة، وهكذا يتلقى فيها الفقراء والمحرومون الصدقات، ويجدون فيها ملجأ يأويهم ليلا، ويعد سيدي بلعباس هذا مأوى لا تنتهك حرمته بالنسبة للمجرمين أو من يخشون ملاحقات المخزن، ولا يخرج الملتجئ إليها إلا بالعفو أو ما يسمى بالأمان، وحين يرسل الأمان من قِبل السلطات المخزنية، إذا استأمن المعفى عنه قليلا، يريد الاطمئنان بسماع العفو من فم من وافق عليه، فيحتمي بغطاء الجوخ الموضوع على قبر الولي ويصطحبه رئيس المزار[18].

6. الحياة العلمية

يذكر التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، أن أطفال مدينة مراكش بمجرد أن يشرعوا في التكلم يرسلون إلى المدارس، وبقوة الضرب يتكلف الطالب (المعلم) بتعليمهم القرآن عن ظهر قلب وكتابة بعض الكلمات، ويتلقى الطالب أو أستاذ المدرسة موزونة أي ما يعادل 4 سنتيمات كل خميس، وأوقيتين في الشهر من كل تلميذ، بالإضافة إلى بعض الهبات، عادة ما تتكون من قمح ودواجن[19].

وحينما يتمكن التلميذ من حفظ القرآن الكريم، يتم التجول به على متن حصان بالشوارع ويعلن على أنه حامل للقرآن، إذ ذاك إن أراد أن يتكون قليلا، يقبل في مدرسة حيث يكون بإمكانه دراسة الكتب القديمة الموضوعة في المكتبات، وبمقابل بعض الهدايا، يتابع دروس الطلبة الذين يدرسون مبادئ علم الحساب والتاريخ، ومبادئ الهندسة والفقه، وبعد

[17] Ibid., p446.

[18] Ibid., p445.

[19] Ibid., p444.

سنوات من الإقامة بالمدرسة، يصير (طالبا) أي متعلما، ويكون بإمكانه أن يصبح عدلا، ثم فقيها، وعالما، وأخيرا قاضيا[20].

ثالثا- الأنشطة الاقتصادية

1. النشاط التجاري

يذكر التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، أن مدينة مراكش تتوفر على سوقين أسبوعيين هما الخميس والجمعة، بالنسبة لسوق الخميس هو السوق الرئيسي، ويقام في جزء منه بالمدينة، بالخميس الدخلاني وفي جزء خارج أبواب المدينة، قرب باب الخميس، تباع به المواشي والخيول والبغال والجمال والحمير، والبائع ملزم بأداء ضمانة في حالة ما إذا كانت البهيمة المباعة مسروقة، ويحرر عقد البيع من قِبل العدول ويعطى للمشترى، في حين يُقام سوق الجمعة بجامع الفنا، ولا تُباع به المواشي ذات القرون[21].

إلى جانب هذه الأسواق، تتوفر مدينة مراكش على سوق للحبوب وهو أيضا مكان لبيع الملح، هذا السوق يقع في وسط المدينة، ويسمى (الرحبة)، وقريبا جدا من سوق الرحبة يقع سوق الغزل، حيث يباع العبيد، أيام الأربعاء والخميس والجمعة، ساعة قبل غروب الشمس، إنه السوق الرئيسي لكل المغرب لبيع العبيد الزنوج القادمين من السودان الغربي وسوس[22].

وفي نفس السياق، يُشير التاجر والمستكشف السالف الذكر، أن مدينة مراكش تتوفر على قيساريتين، واحدة تسمى (السوق الجديد)، حيث تباع فيها كل أنواع الأثواب المستوردة من الخارج، وسوق العطارين لبيع السكر والعقاقير، وسوق السماطة لبيع الأحذية، أما تجار الحديد والحدادون والنجارون والجزارون، فلكل واحد منهم شارع خاص، وهذه الشوارع متصلة ببعضها بواسطة أبواب تغلق ليلا، وهذه الشوارع فضلا عن ذلك خالية من البيوت،

[20] Ibidem.

[21] Ibid., p438.

[22] Ibid., p440.

وباستثناء الحراس فغير مسموح لأي شخص السكن فيها، ولتجار الجملة مستودعاتهم ودكاكينهم بالفنادق[23].

2. الصناعة

يُشير التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، أن مدينة مراكش ليست مدينة صناعية مثل فاس والرباط، إذ يعطي سكانها أولوية للفلاحة، وهو ما يجعل حياكهم وزرابيهم دون مستوى نظيراتها المصنوعة في فاس والرباط، والصناعة الوحيدة التي لا نظير لها بمراكش هي الدباغة، ويعمل كل الدباغين في مراكش تقريبا، بالنسبة للصباغة يستعملون دودة القرمز وقشور الرمان، وهم بارعون أساسا في اللونين الأحمر والأصفر، وتم إدخال الصبغ الأحمر من قِبل الفرنسيين، ويبدو أنه عوّض كل باقي المواد الأخرى المستعملة من قِبل الدباغين[24].

رابعا- المرافق العمومية

1. المطاحن

يُخبرنا التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، أن مدينة مراكش كانت تتوفر على المئات من المطاحن، تُديرها الخيول واثنا عشر مطحنة مائية، تقع هذه الأخيرة خارج المدينة بجانب باب الروب، يؤدى عن خروبة من القمح تزن حوالي 150 رطلا ثماني أوقية مقابل طحنها، وتتولى عملية عزل النخالة والسميد والدقيق نساء بواسطة مناخيل صغيرة صنعها اليهود (Paul Lambert, 1868, p441).

2. الأفران

يظهر من بيانات ومعلومات التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، أن مدينة مراكش كان يوجد بها حوالي 80 فرنا لطهي الخبز، تسخن بواسطة أغصان الأشجار وجذوع النخل وأوراق الأشجار المجففة بالشمس[25].

[23] Ibid., pp438-439.

[24] Ibid., p441.

[25] Ibid., p442.

3. الحمامات

يبدو من خلال المعطيات والارتسامات التي دوّنها التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، أن مدينة مراكش كانت تتوفر على عشرين حماما عموميا، وهي موزعة كما ينبغي بالمدينة والقصبة، ويتكون الحمام من بهو، وغرفة ذات حرارة معتدلة، وغرفة أخرى ساخنة بالبخار، وهكذا يكون المستحمون مجتمعين مع بعضهم، ويؤدي الرجال أثناء خروجهم موزونة لكل فرد مقابل استحمامهم، والنساء موزونتين[26].

4. السجون

يُحدثنا التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، أن مدينة مراكش كانت تتوفر على ثلاثة سجون، واحد منها خاص باليهود، ولا يشتغل بالنهار إلا لليهود المرتكبين للأخطاء الصغيرة، بينما السجنين المتبقيين بالمدينة يدخله عموم الناس والثاني بالقصبة، وهو خاص بسجناء الدولة، سواء قواد الأقاليم أو بعض الموظفين، أو بعض الرعايا المتمردين[27].

5. المارستانات

يظهر من خلال معلومات التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، أن مدينة مراكش كانت تتوفر على مارستان (بيت الحمقى)، هذا الأخير، يقع أمام سجن المدينة، ويحتوي هذا المارستان على مكان لحبس النساء، بينما الرجال يوضعون في الطابق السفلي، مربوطي الأعناق بسلاسل ثقيلة مشدودة بالحائط، ويطلق الحراس سراحهم خلال الليل، حتى يتمكن هؤلاء من النوم على الأرض[28].

خامسا- السلطة وتدبير الشأن المحلي

انطلاقا من شهادات التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير، فإن مدينة مراكش كان يتولى الإشراف عليها السلطات التالية: باشا أو قائد، حاكم؛ وخليفة، وهو نائب الحاكم؛

[26] Ibidem.

[27] Ibid., p435.

[28] Ibid., pp436-437.

ومول الدور، وهو رئيس شرطة الليل؛ ومحتسب، وهو المشرف على الأسواق ورئيس الشرطة بالنهار؛ وقاضيان؛ وناظر، وهو المشرف على أحباس المساجد والمدينة[29].

خاتمة:

يبدو من حصاد ما سلف، أن رحلة التاجر والمستكشف الفرنسي پاول لامبير نفيسة ونادرة، نظرا لما تزخر به من معطيات ومعلومات قيّمة في غاية من الأهمية، من شأنها إذا ما استغلت بالكيفية المثلى أن تساعدنا لا محالة على ملأ الفراغ المعرفي، الذي تشكو منه الكتابات التاريخية التقليدية، المتميزة بالشح والابتسار على صعيد عناصرها الإخبارية. وعليه، فالعودة إلى مثل هذه الكتابات الأجنبية، رغم نظرتها الاستعلائية، وأحكامها المسبقة، وخطابها الذي يشرعن للغزو والهيمنة، أضحت اليوم ضرورة ملحة يفرضها البحث التاريخي المعاصر من أجل الاستفادة منها، خاصة في مقاربة مواضيع وقضايا جديدة تهم أساسا: التاريخ الذهني، والاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، والديني، صحيح أن هذه الكتابات لن تمكننا أبدا من رسم صورة شاملة وكاملة وواضحة، حول تاريخ مدينة مراكش الحمراء وحضارتها، بيد أنها على الأقل بإمكانها أن تستكمل لنا بعض التصورات، وتسد بعض الفجوات، التي تعاني منها المصادر المحلية المغربية.

قائمة المراجع:

1. المراجع العربية

- بوشعراء، مصطفى، **الاستيطان والحماية بالمغرب 1280-1311/1863-1894**، (4 أجزاء)، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى، 1408هـ-1988م، [الجزء المعتمد: الثالث].

- بلحداد، نور الدين، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية 1873-1894م**، تقديم مصطفى الكثيري، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، الطبعة الثانية، 2016.

[29] Ibid., p435.

- جاهل، عادل، "البحث الكولونيالي الإسباني حول مجتمع إفريقيا (الصحراء الأطلنتية نموذجا): محاولة في التعريف والتركيب"، **مجلة جيل العلوم الانسانية والاجتماعية**، مجلة علمية دولية محكمة ومفهرسة، تصدر شهريا عن مركز جيل البحث العلمي، طرابلس، لبنان، العدد 51، مارس 2019، (صص.65-84).

2. المراجع باللغات الأجنبية

- Paul Lambert, "Notice sur la ville de Maroc", In **Bulletin de la Société de Géographie de Paris**, Novembre-Décembre 1868, (pp.430-447).